Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

خصوصية الذات والأمكنة في الرواية المنجمية قراءة في رواية(لهيب المواجهة)للهادي الزعراوي.

The privacy of self and space in the mining novel, a reading in EL hadi EL "zaaraoui's novel " The Flames of Confrontation

نور الهدى غرابة ، وهيبة عجيري (nor elhouda ghraba- wahiba adjiri

1 جامعة محمد خيضر بسكرة ، مخبر نظريات القراءة و مناهجها norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

2 جامعة محمد خيضر بسكرة ، مخبر نظريات القراءة و مناهجها wahiba.adjiri@univ-biskra.dz

المؤلف المرسل نور الهدى غرابة: norelhouda.gheraba@univ-biskra.dz

تاريخ الاستلام 2020-12-14 تاريخ القبول 2021-04-13

ملخص:

تعد الرواية من أكثر الفنون معالجة للقضايا الإنسانية ، فهي تنطلق من رؤية مخصوصة تنفتح فيها على المكان والزمان، فتغوص في عوالم الذات الإنسانية الأمر الذي جعلها تحظى بمكانة، ورواية لهيب المواجهة نموذجا ابداعيا جادا في عالم الكتابة الروائية التي تختص بالأدب المنجمي، صورت المعاناة والاضطهاد الذي يمارس على سكان المناجم، وتوثيق الانتهاكات المرتكبة بحقهم ،وفي دراستنا هذه سنجيب على مجموعة من التساؤلات ما المقصود بالأدب المنجمي؟ وهل استطاع الروائي في روايته أن يعكس الحياة الحقيقية لسكان المناجم؟.

الكلمات المفتاحية: الذات، المكان، أدب المناجم، الرواية، الهادي الزعراوي.

Abstract:

The novelisone of the mostinpirtant arts dealingwithhumanissues ,based on a special vision thatis open to space and time, and itsdivinginto the worlds of human self givesit a significant place.

« theflames of Confrontation » novelis a seriouscreative model in the world of novelisticwriting, whichspecializes in miningliterature. It portrays the suffering and persecution of the miners, and in ourstudywewillanswerarenge of questions such as whatismeant by miningliterature ? was the novelist able to reflect in hisnivel the true image if the miners,life ?

Keywords:

The self, The space, The miningliterature, The nivel ,Lhedizaaraoui

1

. تقديم رواية "لهيب المواجهة"

حظيت انتفاضة الحوض المنجمي سنة 2008 باهتمام كبير، فتسارعت الأقلام الإعلامية والإبداعية لتوثيقها ومواكبتها، السبب الذي جعل الروائي الهادي الزعراوي يخوض غمارها بعنوان لهيب المواجهة الذي استمد أحداثه من ملحمة الحوض المنجمي، كما لا يمكن أن ننكر أن الحوض المنجمي كان مصدر الهام للعديد من الشعراء والروائيين في تونس والمغرب الذين نقلوا مآس ونضالات عمال الداموس، ضمن أعمال أدبية تحاكي الواقع المنجمي وتكشف كل تفاصيله واختلالاته، فعبروا عن القضايا الإنسانية بكل أوجهها عبر الشخوص والأمكنة التي تم اختيارها بدقة، فامتزج الأدبي بالواقعي عبر لغة ابداعية مكثفة ودالة. ونسعى من خلال هذه الدراسة إلى التركيز على الأهداف التي يرمي إليها كتاب أدب المناجم من خلال أعمالهم الابداعية.

تعد رواية "لهيب المواجهة" لكاتبها الروائي التونسي الهادي الزعراوي من النماذج الإبداعية الجادة في عالم الكتابة الروائية التي تهتم بالأدب المنجمي، دون لنا فيها انتفاضة الحوض المنجمي في تونس من جميع جوانبها، حيث عمل على التعريف بالمناطق المنجمية تعريفا دقيقا، نقل لنا فيه صور المعاناة والاضطهاد، الذي يمارس على سكان المناجم من طرف السلطات، "صامد" بطل الرواية وهو الراوي وجد نفسه أمام الرغبة في الإفصاح عن مطالب سكان المناجم وبؤسهم وفضح أفكار وأهداف النظام المؤمنة بخدمة الذات وتحقيق مصالحها الشخصية، وليس خدمة المواطنين بما يلائم حاجياتهم

ورغبتهم في العيش الكريم، هذه المسؤولية أدت إلى إلقاء القبض عليه وسجنه فتعرض إلى التعنيف الجسدي واللفظي، لكن من حسن حظه برأته المحكمة من التهم المنسوبة إليه بعد أيام من المعاناة والتعذيب اكتشف فيها قيمة الحرية والاستقرار، و بعد خروجه من السجن بقي متابعا من قبل السلطات الأمنية، وجد نفسه أمام خيار صعب إما التخلي عن أشياء يصعب التنازل عنها ومؤلم جدا تركها لأن الإنسان تربطه علاقات حميمية مع أسرته ومجتمعه ككل، أو مواصلة الدفاع عن سكان المناجم، لكن الظروف القاسية التي يعانيها أهل الرديف وبقية المناطق أجبرته على ترك كل شيء وحمل هذه القضية، هنا استخدم مهنته كصحفي من أجل تحقيق مطالب أهل المناجم، فطموح الذات وآمالها فرض عليه الإفصاح عن رغبات الآخرين التعساء الذين تمردوا وثاروا على السلطة الفاسدة ورفضوا الانقياد والخضوع لقوانينها الجائرة، فدخلوا في صراع مع أعوان الأمن، تجمهروا من أجل المستقبل الأفضل، لكن موقفهم هذا عرضهم إلى الموت الذي أصبح مصيرهم لا محالة، فكم من شاب سقط ضحية الضرب والتعنيف، لأنه طالب بأبسط حقوقه وأراد أن تتحقق أحلامه ويعيش سعيدا كغيره من البشر.

إلا أن منظومة السلطة الفاسدة التي تخدم مصالحها فحسب عملت على إخماد لهيب مواجهتهم وسخرت كل الوسائل لشل اعتصامهم والانتصار على هذا المواطن الضعيف الذي لا يملك حتى بيت يأويه هو وعائلته التي تفتقر لأدنى وسائل العيش الكريم، هذه الذوات الحاكمة والمتسلطة عملت على إسكات هؤلاء المقهورين واستمرت باحتقارهم وتهديدهم بالاعتقال والتعذيب لبعث الرعب فيهم، إلا أنّ تلك الذوات المجردة والبائسة اتخذت الاحتجاج والانتفاضة أداة للتعبير عن مطالبها وحقوقها وعن رفضها لاستغلال واستبداد عمال المناجم فوضعت شعارات أكثر ما يقال عنها أنها تحمل سياقا إنسانيا ووطنيا مليئا بالطموح والتشبث بالحياة، فالذات المثقفة والمتمثلة في السارد (صامد الصحفي) ساهمت في خدمة الانتفاضة من جهة، ومن جهة أخرى فضحت كل المؤامرات التي كان يحيكها النظام من أجل كسر هذه الانتفاضة، السلطة التي استحوذت على ثروات المناجم ونهبتها ادعت أن استغلالها يساهم في رفع الاقتصاد الوطني ويعود بالفائدة عليه ، لكن الواقع يقول عكس ذلك بعضها فقط يعود للخزينة أما الباقي هو لهم يتمتعون من خلاله بحياة البذخ في حين ينتظر سكان المناجم الفتات ومبلغ زهيد مقابل عملهم الشاق و الخطير الذي أودى بحياتهم في كثير من الأحيان ووقعوا ضحايا، أما البعض الآخر فهو طريح الفراش يعاني الموت البطيء لأن المرض الخطير تسلل لجسده.

هذه هي حياة سكان المناجم البائسة التي نقلها لنا الروائي، يوميا يتعرضون للاحتقار والإهانة من طرف أعوان الأمن صبرهم الطويل ولّد انتفاضتهم على أوضاعهم فناشدوا الدولة بتحقيق مطالبهم.

صامد كان يتنقل بين مدينة وأخرى لتغطية الأحداث ينقل لنا حواراته مع أشخاص يقطنون في هذه المدن، استحضر لنا كل أحداث الاحتجاجات ضد التسلط والاستغلال، فتعالت أصوات هؤلاء تناشد الدولة بفك العزلة عنهم وتوفير حاجياتهم وتزويدهم بكل ما تتطلبه الحياة لأنهم مواطنون من تونس وليسوا غرباء، يساهمون بسواعدهم في رفع اقتصاد بلدهم بالرغم من افتقارهم للوسائل الحديثة التي تساعدهم في العمل وتمنع تسلل المرض لأجسادهم، ظروف حياتهم المزرية جعلتهم يتمسكون بهذه المهن الشاقة لأنه لا يوجد البديل لها، بطل الرواية أو السارد اتخذ من الكتابة والصورة أداة لإعلان التمرد فضح العديد من الحقائق التي تثبت النهب واستغلال الفسطاط من قبل الزعماء الفاسدين، ترصد بآلة التصوير كل تحركات المتظاهرين، وكان يخشى في كل مرة أن يلقى القبض عليه، لكنه يحاول بطرقه الإفلات من قبضة أعوان الأمن والابتعاد عنهم، تمثل شخصية صامد هنا الصمود والشجاعة والسعي وراء تحقيق مطالب المضطهدين من العمال، إنه نموذج مثالي عن مواطن مفكر ومناضل.

المتمعن لأحداث الرواية يجد أنها تنقل لنا واقع ضروري لسكان المناجم، حيث عملت الدولة على السيطرة على مادة الفسفاط، وإخراس ألسنة المتظاهرين المطالبين بحقوقهم، والسارد هنا مثل صوت فئة اجتماعية غلب على أمرها ولم تجد وسيلة للخروج من عزلتها وضياعها سوى الانتفاضة.انطلاقا مما تقدم نطرح من الأسئلة التالية: ما المقصود بأدب المناجم؟ وهل يمكن أن نقر بأنه فن ينتمي إلى حقل الأدب؟ من هم رواده وهل استطاعت كتاباتهم أن تلقى صدى عند جمهور القراء؟ ما هي القضايا التي يعالجها هذا الأدب وما هي أهدافه؟ كيف قدّم الكتاب الأبعاد الدلالية للمكان في الرواية المنجمية؟ وهل المكان هو المؤشر الأول والرئيسي في ظهور ما يسمى بأدب المناجم؟ كيف تمثلت العلاقة بين المكان وعمال المناجم أو سكانه؟

2. أدب المناجم أو الأدب المنجمي: (ملامحه وأهدافه)

لقد شكل البحث في الرواية اقترانا بعالم فني وفكري مركب ودال، "لأنه عالم يبنيه الروائي من الواقع ويصوغه بطريقته الخاصة، يفجر فيه أسئلة الراهن ويغوص في البنى الاجتماعية القلقة، ويكشف المسكوت عنه عبر نص دون فيه قضايا الأمة ورؤاها وطموحاتها وآمالها المستقبلية.يقول محمد الهادي زعبوطي في تعريفه لأدب المناجم "أدب المناجم، الأدب المنجمي، أدباء منجميون... مصطلحات متنوعة ومختلفة الإشكال المشار هنا: هل جوز الحديث عن أدب المناجم "أو أدب منجمي" اختلف النقاد والأدباء حول درجة قبول المصطلح... هذا الاختلاف عائد بالأساس إلى صعوبة تحديد المفهوم المرتبط بهذا المصطلح والأجدى أن نعود إلى بعض التساؤلات في سياقها التاريخي كي نتمكن إلى الوصول إلى ما نزعمه من شرعية أدب المناجم "ظهر في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين في تونس، أما في مناطق المناجم وتحديدا في مدينة المتلوي فإن الشعراء هناك ينظمون حول مواضيع مناجم الفسفاط وما يدور حولها من معاناة وتحد للطبيعة والتعلق بقيم العدالة والانعتاق على المستوى الاجتماعي والإنساني".[1]وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن مقاومة التهميش هي التي أدت إلى ظهور ما يسمى بالأدب المنجمي والذي ظهر في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين في تونس، في مناطق المناجم وتحديدا في مدنية المتلوي، حيث تؤرخ انتفاضة الحوض المنجمي لنضال الحركة العمالية وتعبيرها عن مآسيها الناتجة عن ظروف العمل التي تهين كرامة الإنسان، مستلبة لكيانه الضائع.وتجدر بنا الإشارة هنا إلى أن مقاومة التهميش هي التي أدت إلى ظهور ما يسمى بالأدب المنجمي والذي ظهر في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين في تونس، في مناطق المناجم وتحديدا في مدنية المتلوي، حيث تؤرخ انتفاضة الحوض المنجمي لنضال الحركة العمالية وتعبيرها عن مآسيها الناتجة عن ظروف العمل التي تهين كرامة الإنسان، مستلبة لكيانه الضائع.

معاناة منطقة المناجم أدت إلى الانتفاضة سنة 2008 التي فتحت الطريق أمام الشعب لصب غضبه على النظام واحتجاجهم ضد الفقر والتهميش والفساد أعمال المناجم الكادحين وعيشهم المزري فجر قرائح الشعراء وأقلام المبدعين الذين راحوا ينقلون معاناتهم في شعرهم وأعمالهم الروائية والمسرحية، فكانت الكتابة الوسيلة الوحيدة أمامهم لطرح مشاعل فئة بشرية مستقرة بأرض الشقاء والبؤس.

3. خصوصية الذات في الرواية المنجمية:(تفكيك سلطة الانتهاك والانتصار للمثقف)

تعتبر الرواية من أكثر الأجناس الأدبية التي تصور الذات بالاختلاف انطباعاتها نتيجة الأحداث التي تمر علها، وقد انتبه العديد من النقاد في نصوصهم التنظيرية ودراساتهم التطبيقية إلى قضية دراسة الذات الإنسانية في الأعمال الأدبية وبالأخص الروائية لاعتبار هذه الأخيرة وما تتضمنه من شخصيات رئيسية ما هو في حقيقة الأمر إلا إسقاط صريح للذات الكاتبة وما تختص به سواء على الصعيد الشخصي للتكوين النفسي والملامح الداخلية الشعورية واللاشعورية أو على المستوى الخارجي العام وما يحتويه من تمثيل للواقع الاجتماعي وما يعتريه من روافد اقتصادية وسياسية واجتماعية وحتى الثقافية.إن الحديث عن الذات الكاتبة من التشكيلات الأساسية المكونة للوجود الفردي للشخصية الروائية، وكيفية تعاملها مع الشخصيات الحكائية وتفاعلها مع الآخر المحيط بها.والذات عند "ميد" هي "الفرد عبر علاقاته التبادلية مع الآخرين، والذات هي فاعل ومفعول، فالأنا هي الذات التي تفكر وتعمل أي الأنا الفاعل، أما الأنا المفعول فهي وعي الذات بذاته كموضوع في العالم الخارجي للآخر.[2]

تبرز خصوصية الذات بشكل جلي في رواية "لهيب المواجهة" والتي تضع أمام القارئ مادة حقيقية واقعية صادرة عن تجربة ذاتية يسعى من خلالها الكاتب إلى استرجاع ماضي مضمرا ستمر ولم يتغير في الحاضر، يعمل من خلاله على ترميم انكساراته أو الكشف عن واقع بحيثياته المعاشة مع حقائق ملموسة تسعى لإيجاد الحلول الممكنة لجملة من المشاكل والمعوقات والسعي لإيجاد الأحسن.

من مميزات الرواية المنجمية استحواذ الذات الكاتبة على الأحداث وتجلت في صور نذكر منها:

1.3. صورة الذات المثقفة:

صامد الصحفي (السارد) والذي كرس حياته لنقل معاناة سكان المناجم خاصة في منطقة الرديف وما جاورها، حيث استطاع بقلمه أن يحدث قلقا للسلطات، هذا الصحفي اللامع الذي حدثنا في روايته هذه عن سيرته مع المعاناة والألم والوحدة التي تخبط فيها طيلة تواجده في السجن جراء اعتقاله "أنا يا عزيزتي أدفع الثمن باهظا من أجل حقي في الكتابة والإعلام الحر، لقد تم حشري في

زنزانة ضيّقة وباردة رغم شدّة الحرّ ولا أعرف ماذا تخبئ لي الأيام مستقبلا..."[3].

إن الذات المتألمة في هذا النص جعلت المتكلم يعيش جملة من الصراعات الداخلية بين القيد والحرية، بين الفرح والحزن، بين الرغبة في التعبير وتغيير الواقع، وصمت فرضته عليه الظروف القهرية التي يعيشها العمال .

تلك الذات التي اتسمت ملامحها وخصوصياتها في الرواية ممثلة في شخصية(صامد) هذا الصحفي اللامع الذي حدثنا عن سيرته مع المعاناة والألم والوحدة يقول"هاجسي هو التّوق إلى الحرية التي لا ثمن لها، كنت أردد منذ زمان أنه لا شيء أثمن من الحرية الحقيقية في هذه الحياة صدقوني، إنها تستحق أن نناضل من أجلها مهما كانت الفاتورة باهظة، ها اليوم أصبحت في زنزانة مظلمة"[4] إن الذات المتألمة في هذا النص جعلت المتكلم يعيش جملة من الصراعات الداخلية بين القيد والحرية ، بين الفرح والحزن ، بين الرغبة في التعبير وتغيير الواقع، وصمت فرضته الظروف عليه كل ذلك أتى جراء الاحتجاج المعلن عنه بسبب الظروف القهرية التي يعيشها العمال .

هذا الوضع جعل الذات (السارد أو الراوي) يعيش دور المحاورة الداخلية بين الأنا المحتجة والتي تمثل الطبقة الكادحة والأنا الكاتبة التي تعمل دور الشخصية المقابلة و هو الصحفي الذي لم يجد أمامه سوى التعبير عن واقعه الكارثي وسط حكم ترفض فيه كل وسائل التعبير والحراك، فكانت وسيلته الوحيدة لتكسير هذا الحاجز استغلال مهنته وقلمه، وهنا تكمن خصوصيته الذات الكاتبة المبدعة والتي تجعل من القلم سلاحها للدفاع عن المظلومين ونقل الحقيقة "أصبحت أحتاج إلى قلم أكثر من أي وقت مضى لأكتب رسالتين ولكن القلم صعب المنال في هذه الظروف العسيرة خاصته عندما طلبته أعوان السجون ’وقبل طلبي بالرفض التام أدرك أهمية القلم في زمن المصائب فالكتابة شفاء من داء الشعور والقلم سلاح فعال للسجين والكلمة مثل طلقة الرصاصة تحي بها أو تموت..."[5]

إن جوهر القضية الإنسانية التي يطرحها الكاتب تقف عند الظلم الذي يعانيه رواد القلم في الإفصاح عن تجاربهم الذاتية فيكون لهم متسع للبوح، وتستطيع هذه الذات التي تظهر ملامحها جلية في نوعية اللغة المستعملة والتي تنم عن شخصية مبدعة أسلوب صحفي يقف عند كل صغيرة وكبيرة في وصفه لشخصيات أعوان السجن والمكان ناهيك عن وجهة نظره الاقناعية إذ حاول الكاتب منذ بداية الرواية أن يضعنا في الصورة العامة للواقع والتجربة التي عايشها حتى نتفاعل مع الأحداث.

أما الصراع فقد عمل على تشخيصه تشخيصا بارزا من خلال المواجهات التي وقعت بين العامل والمؤسسة التي يعمل بها والدولة وحتى المجتمع.

من مميزات الرواية المنجمية استحواذ الذات الكاتبة على الأحداث وتجلت في صور نذكر منها:

4. خصوصية المكان في الرواية:

للمكان حضور متميز في النص الروائي، من خلاله نستطيع أن نفهم سلوك الفرد وانفعالاته مع الأفراد المحيطين به، فهو يحمل دلالات متنوعة ومختلفة باعتباره المحرك الأساسي لبنية الأحداث، أما في الأدب المنجي يحظى بالكثير من الاهتمام لأنه المصدر الأساسي والأول الذي انطلقت منه الأحداث أو يمكن أن نقول عنه أنه مسرح الأحداث بحد ذاتها، فهو لا يعتبر مجرد حدود جغرافية تحوي ثروة الفسفاط، إنه في الواقع يجعل العديد من قصص العمال المضطهدين ومأساة السكان الذين اتخذوا من هذه الثروة بيوتا لهم.

اهتم "غاستون باشلار" بمفهوم المكان وعلاقته بالإنسان في كتابه "جماليات المكان"، وقد تناول فيه الجانب الجمالي للأمكنة حيث يعتبره "النقطة الأساسية التي ينطلق منها المؤلف هي أن البيت القديم بين الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكيف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائما نستعيد ذكراه ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية، ذلك الإحساس بالجمالية والأمن الذين كانا يوفرهما لنا البيت القديم".[6]

ويلعب المكان دورا فعالا في الرواية المنجمية لأنه يعتبر المحرك الأساسي للأحداث فالعلاقة بين " الإنسان والمكان في هذا المنحى تظهر بوصفها علاقة جدلية بين المكان والحرية، وتصبح الحرية في هذا المضمار هي مجموع الأفعال التي يستطيع الإنسان أن يقوم بها".[7] كما يعتبر أيضا: "الحاوي الأول، وهو ليس جزءا من الشيء لأنه مساو للشيء المحوي وفيه الأعلى والأسفل، وهناك المكان الخاص وهو الذي يحويك لا أكثر، والمكان المشترك الذي يكون حيز الجسمين أو أكثر".[8]

من خلال التعاريف السابقة نرى أن للمكان خصوصية لها تأثير كبير على ذاكرة وحياة الإنسان، ليس مجرد مبان لها أبعاد هندسية فحسب، بل يتداخل مع الإنسان في علاقة وطيدة لأنه يحمل ذكرياته همومه، آماله وطموحاته، فالمكان يتأثر مع الأشياء التي يحتويها، فلا هو بمعزل عنها، ولا هي تتشكل من دونه.

صور لنا الروائي "الهادي الزعراوي" المكان في روايته "لهيب المواجهة" في أوجه متعددة، المكان الأم، المكان الحلم الضائع، المكان المأساة والمعاناة، استطاع من خلالها أن يتلاعب بالمفردات والتراكيب، فصور لنا الذات المتألمة والضائعة، وعبر لنا من خلالها عن طموحاته في التغيير فدافع عنها بالكلمة والصورة التي هي سلاحه السالم الذي يحيي ولا يميت.ويمكن أن نلتمس معالم المكان في هذه الرواية من خلال العناصر الآتية:

1.4.فضاء السجن: (المكان المغلق)

سبق وأن أشرنا أن المكان من العناصر الأساسية والفنية في بناء الرواية، فالسجن فضاء مغلق يمثل الواقع المرير والمظلم فهو يمثل الفضاء المنغلق الذي يصور الواقع المرير، والانغلاق عن الذات والغياب عن الأهل والرفاق وكأنك تفارق الحياة" فهو رمز اللاحرية والقهر وهو مكان يقوم بوظيفة تقييد الشخصيات، وقهر حريتهم، لكنّه يساهم في انفتاح الذاكرة وبناء الآمال"[9] فالانحباس في الزنزانة والانغلاق على الذات والبعد عن الأهل قهر وتقييد للحرية وهذا ما صامد "دفعوني إلى زنزانة ضيقة مظلمة بعد أن أشبعوني صفعا وشتما ثم أحكموا إغلاق بابها، تكورت في زاويتها دون أن أجد فيها سريرا مهترئا، ولا بساط أو حتى قطعة قماش افترشها لتقيني من بعض السوائل التي تغمر أسفلتها، ضممت ساقي لحضني أكثر ودسست رأسي بينهما واستسلمت للدموع التي تنهمر من عيني..."."[10] شخصية صامد هنا تعاني من الزنزانة المظلمة والضيقة التي لا تتوفر فيها أبسط وسائل الراحة يتبع النقل "رغم أنني لم أحسن بوجع جراء التعذيب الذي مورس علي، وعلى ضوء سيجارتي وجدت لائحة السجن معلقة على الباب الحديدي، اقتربت منها محاولا قراءتها وفك رموزها، فلمحت بعض بنودها التي تنص على أنه لا يسمح لي بلقاء أي شخص، وأن تمنع علي المراسلات وحتى الاطلاع على الجرائد والكتب، وهو ما يعني أنه لا يدخل لي شيء"."[11]

هنا تبدأ المعاناة الحقيقية لصامد الذي حرم من كل شيء وكأنه ارتكب جريمة نكراء، فمورس عليه العنف ونفرض للإهانة من طرف أعوان السجن الذي تفننوا في ضربه وإهانته "مع منتصف الليل تقريبا دخل علي عشرة أعوان سجون وجردوني من ملابسي وانهالوا علي ضربا بأسواط وهراوات ثم أجبروني على الزحف عاريا على الإسفلت فكان السوط يلاحقني من الخلف وهم تتعالى ضحكاتهم، ثم وخزوني بإبرة في كتفي لحرماني من النوم وبعد ساعة تركوا سبيلي وخرج بعضهم وبقي آخرون، حيث كان جسدي ينزف دما، حاولت أن أقف لكني لم أستطع، فبقيت جالسا مستندا إلى الجدار الذي نتشته أظافر السجناء الذين سبقوني"[12] رأى صامد في السجن بشاعة من كانوا يسجنون، مارس عليه أعوان السجن أشد أنواع التعذيب التي شعر فيها بفقدانه لكرامته وذاته، انسلخ هؤلاء من الإنسانية وكانوا يتمتعون بألمه وإهانته بالضحك، هذه اللحظات التي يتجرد فيها الإنسان من إنسانيته ويصبح جلادا للآخرين تسبب الحقد الذين يدفن في قلوب المساجين الذين يحولونه مع مرور الأيام إلى جرائم بشعة في حق آخرين أبرياء ذنبهم الوحيد أنهم وجدوا في واقع مزري.

هذه الزنزانة التي كتمت أنفاس صامد صورها لنا "رائحة الزنزانة عفنة أزكمت أنفي، فلا هواء يدخلها، يعني تقريبا الهواء على قدر الاستنشاق كثر الضجيج في الخارج وهو مما يوحي بطلوع الفجر، ففي السجن لا يمنك أن تميز بين الليل والنهار"[13] ففي السجن تفقد حريتك كيانك ووجودك لدرجة أنك لا تفرق بين الليل والنهار ولا تحس بهمها إلا من خلال الفوضى التي يحدثها المساجين أثناء خروجهم إلى ساحة السجن أو من خلال تناول الوجبات، هنا تفقد إدراكك لكل ما حولك.

"مر الوقت ببطء وبعد ساعات لمحت خيط أشعة الشمس بجانب سقف الزنزانة التي تعد مساحتها ما يقارب الثلاثة ونصف متر وبها حمام صغير مغلف بسقف إسمنتي وحوض صغير بجواره دون ساتر ومصطبة إسمنتية للنوم، بها باب حديدي به فتحة عرضية يتم إدخال الطعام للسجين من خلالها... ففي السجن يحتاج السجين عادة إلى شهر حتى يصبح شجاعا ويجيد التعامل مع السجان والسجناء" السجن قيد والسبيل الوحيد مآسيه هو عدم الانهزام ومواجهة المواقف بشجاعة وهو ما حدث مع صامد "قلت في نفسي وأنا أنظر إلى سقف الزنزانة، ففي السجن يرى السجين قضيته بوضوح أكبر، شرط أن يكون أكثر صلابة، وكم انصهر مناضلون شرفاء في أفران السجون القاسية وخرجوا إلى العالم أكثر صلابة، في مخيلتي ترفع شعارات أول مرة أسمعها، أبناء الشعب في الخيام

وأموال الشعب في القصور، التشغيل استحقاق يا عصابة السراق، عاش كفاح الطبقة العاملة"[14] السجن بعث في صامد روح الإصرار والاستمرار في المقاومة، وضع أهدافه أمام نصب عينيه، اكتشف أنه لم يكن يعذب لوحده، بل قد تعذب وعانى آخرون من قبله، الرواية حملت وصف لنا معاناة عمال المناجم وكل من يدعمهم في انتفاضتهم صامد ورغم كل ما عاناه في السجن رأى أن الطريقة الوحيدة لتخليصهم من هذا الواقع المزري ليس الحقد أو الغل لأن المتضرر في النهاية هو الوطن، بل الانتفاضة ومواصلة الاحتجاجات وحدها التي تقود إلى الانتصار وتحقيق الرغبات، أما إذا استسلموا لواقعهم وخيباته سوف تنتهي القضية وينتهي الحلم المنشود.

2.4. فضاء المدينة:

تعتبر المدينة فضاء مفتوح لها أهمية كبيرة في هذه الرواية باعتبارها فضاء اتخذ عدة وظائف، فهي مكان الفسفاط ومسرح كل الأحداث.وبالرغم من أهميتها إلا أنها أصبحت فضاء اللا تواصل، كرست عليها السلطات العزلة يقول: "شوارع المدينة غير مكتظة بالمارة في حين أن المقاهي ممتلئة بالزبائن والغبار يكسو معظم الطاولات، قلت في نفسي: "قفصة لقد خدعوك"، لم أجد سيارة الأجرة المخصصة لنقل المسافرين نحو مدينة الرديف فأغلب من سألتهم قالوا لي: ليس هناك نقل يؤدي إليها... فهمت الأمر، وأنهم يرغبون في جعل مدينة الرديف معزولة يصعب التنقل إليها"[15] ويواصل قوله: "كانت مدينة أم العرائس، يكسوها هدوء حذر، سرت قليلا في الشارع حتى رأيت سيارة أمن قادمة"[16] أصبحت مدينة فقصة وما جاورها مكان للرعب، فالسلطات اتخذت كل الإجراءات والحيطة لتفريق المتظاهرين ومنعهم من الاحتجاج. وقد تجلت على صور نذكر منها :

أ . المدينة بوصفها فضاء ينفتح على الكآبة والرتابة يقول السارد: "الرديف الحمراء عاصفة الانتفاضة... الرديف التي يطلق عليها أبناؤها اسم قرية العجوز فلو كان لدي الآن قلم رصاص لرسمتها ورأيت في وجهها المجمد تقاسم غدر الزمان"[17]. يتحسر السارد هنا على مدينة الرديف التي يشبهها بالعجوز فتعاقب الزمن عليها دون أن يحدث أي تغيير أفقدها بريقها وأصبحت فضاء مقفر يبعث على الوحشة، يواصل السارد حديثه عنها فيقول: "هي مدينة تقع غرب ولاية قفصة من الجنوب الغربي التونسي، اشتهرت بإنتاج الفسفاط وتتميز بجبال رمادية قاحلة ليس فيها ولا عليها، غصن شجرة واحد بها، كما تنتمي إليها منطقتان فلاحيتان "السقدود وتبدين" تنتجان التمور، وتتميز بمناخ جاف وقاس حيث يكون الشتاء شديد البرودة والصيف مرتفع الحرارة... ومنازلها مبنية بصخور الدواميس الأسود المستخرج من قلب جبال الفسفاط الذي يحيط بها، ويعود مدلول تسميتها إلى اسم الولي الصالح سيدي الرديف والذي يزوره الناس إلى يومنا هذا، وتعتبر الرديف ثالث أكبر منتج للفسفاط بالبلاد التونسية بعد مدينتي المتلوي والمظلية"[18]، وضح لنا هنا الموقع الجغرافي للمدينة وقام بوصفها وصفا دقيقا.يواصل حديثه فيقول

ب . المدينة فضاء يثير الرعب والخوف والقهر: يقول :"فالرديف هي مدينة الأشباح، مدينة منذ عقود مضت... إنها صديقة ولدت من عدم وارتبط ظهورها ببداية العمل بالمناجم... وقد ثبت على العمال أنهم أجيال الداموس الذين يعيشون أياما طبعت بمرارة الحياة والمؤسف أن الدولة لم ترى في هذه المدينة سوى تراب وصمت رهيب... هي مدينة التراب الثمين الذي اختلط بأكلهم وصار جزءا من طعامهم تحمله الرياح إلى بيوتهم ويدخل من الأبواب والنوافذ دون استئذان... والكثير منهم يفقدون حياتهم من مشقة التعب في الداموس جراء حرارته المرتفعة وانخفاض الأكسجين وبالتالي اختناقهم فيكون سببا في تدمير الكثير من العائلات وجوع أبنائها وتشردهم"[19] تبقى المدينة هنا مكان مغلق مليء بالضياع ومحفوف بالمخاطر يعلن في كثير من الأحيان عن نهاية عمال مضطهدين تطبع المرارة والجوع والموت حياتهم. يقول:"فسكان المدن المنجمية يعيشون لعقود طويلة تحت وطأة الفقر والهيمنة والحرمان والمرض...فالفسفاط يحتوي على كميات مرتفعة من الكاديوم والبورانيوم وهما من المعادن المتسببة في الأمراض الخطيرة مثل فشل الكلى والسرطان ..."[20] هذه المدن المنجمية كانت سببا في هلاك السكان، فالمدينة هنا مرجعا جغرافيا يرمز للموت، فمشاهدته لذلك التشوه جعله يرفع صوته ويطالب بالتغيير.

المكان بمثابة المرآة العاكسة للشخصية ". كما لا يمكن أن ننكر دوره الفعال داخل السرد، فقد عمل السارد على تصوير حياة سكان المناجم، كما قام بوصف المدن المنجمية وضعا دقيقا ومفصلا. لأن المكان هنا له" القدرة على التأثير في تصوير الأشخاص، وحبك الحوادث، مثلما للشخصيات أثر في صياغة المبنى الحكائي للرواية،

فالتفاعل بين الأمكنة، والشخوص، شيء دائم ومستمر في الرواية، مثلما هو دائم ومستمر في الحياة"[21]وعليه يمكن القول أن المكان ولد ثورة على القوانين الجائرة، ومكن من إطلاق العنان لشعارات الحرية المنددة للظلم والداعية لتحطيم قيود عمال المناجم.

5. خاتمة

من خلال ما تقدم يتبن لنا الأدب المنجمي ما هو إلا نقل للحياة النمطية التي يعانيها سكان المدن المنجمية ،فالروائي نقل لنا صور حياتهم الممزوجة بالألم والمعاناة في ظل غياب اهتمام الدولة وإهمالها لهم وضرب مطالبهم بعرض الحائط، رواية تنقل روح المقاومة والنضال السلمي ،جاءت بلغة فصيحة لم تخل من جماليات اللغة الروائية مزجت بأشعار حب الوطن ،والصور الفنية التي ترسم المواقف.

-تقدس الرواية ذات البعد المنجمي الذات الكاتبة من خلال إسقاط سماتها على الشخصية المختارة لنقل وجهة نظر الكاتب وأبعاده الفكرية.

- لم تقف الرواية المنجمية على توثيق أحداث الحوض المنجمي فحسب، بل اعتمدت على البناء الفني واللغة وجمالية التصوير وتداخل الأجناس الأدبية كالشعر والقصة.

- وثق الروائي انتهاكات النظام بحق شباب الحوض المنجمي، فتميزت لغته بالوضوح والدقة.

- تتعدد أبعاد المكان في الرواية المنجمية ليتجاوز ذلك الحيز المقيد بضوابط محدودة ليعبر عن مكنونات الواقع المعاش والأزمات المعاصرة.

6. قائمة المصادر والمراجع

- أس راب بيرت، مبادئ الفلسفة، ترجمة أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، 2012.
- الهادي الزعراوي: لهيب المواجهة، دار الثقافية للنشر والتوزيع ، تونس، ط1، 2020 .
- فهد حسين: المكان في الرواية البحرينية، دار فراديس للنشر والتوزيع ، البحرين،ط1، 2003.
- إبراهيم خليل : بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، 2010.
- حسن سالم هندي إسماعيل، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (دراسة البنية السردية)، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، الأردن، 2014.
- سيزا قاسم: القارئ والنص والعلامة، المجل

[1]محمد الهادي زعبوطي: أدب المناجم: المصطلح والمفهوم، موقع الانطولوجيا (أنطولوجيا السرد العربي، 9 مارس 2016، تصفح المقال في 08:45، 2019/11/12.

[2] أس راب بيرت، مبادئ الفلسفة، ترجمة أحمد أمين، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، د ط، 2012، ص 30.

[3]الرواية ، ص 30.

[4] الهادي الزعراوي: لهيب المواجهة، دار الثقافية للنشر والتوزيع ، تونس، ط1، 2020 ،.ص16.

الرواية، ص 29.30.[5]

[6]غاستونباشلار، جماليات المكان، ت غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط 2، 1984، ص 30.

[7]سيزا قاسم: القارئ والنص والعلامة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، (دط)،2002، ص45

[8] فهد حسين: المكان في الرواية البحرينية، دار فراديس للنشر والتوزيع ، البحرين،ط1، 2003،ص 55.

[9]عجوج فاطمة الزهراء: المكان ودلالته في الرواية المغاربية المعاصرة،أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه ، تخصص الرواية المغاربية والنقد الجديد، جامعة جيلالي ليابس سيدي بلعباس، كلية الآداب واللغات والفنون، 2017.2018، ص57.58.

[10] الهادي الزعراوي، لهيب المواجهة، ص 13.

[11]المرجع نفسه، ص 14.

[12]المرجع نفسه، ص 14.

[13]المرجع نفسه، ص 14.

[14]المرجع نفسه، ص16

[15] الهادي الزعراوي، لهيب المواجهة، ص 56.

[16]المرجع نفسه، ص 57.

[17]المرجع نفسه، ص 62.

[18]المرجع نفسه، ص 63.

[19]حسن سالم هندي إسماعيل، الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث (دراسة البنية السردية)، دار الحامد للنشر والتوزيع، ط 1، عمان، الأردن، 2014، ص 201.

[20] الهادي الزعراوي: لهيب المواجهة، ص 69.

[21] إبراهيم خليل : بنية النص الروائي، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1، 2010، ص131.